من إصدارات
المجمع الإسلامي العلمي

موقف المسلمين في الهند من التعليم والتربية

و دورهم في إثراء التاريخ الإسلامي

بقلم :
سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء -لكناؤ (الهند)

اهتم بالطبع والتوزيع :
المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء ، ص. ب ١١٩ -لكناؤ (الهند)

کاکوری آفسیٹ پریس لکھنؤ فون: ۲۲۹۶۱۶



كلمة بين يدي الرسالة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد ا فإن المهرجان التعليمي الذي أقامتـه نـدوة العلمـاء بمناسـبة مـرور خمسـة وثمـانين عامًـا علـى تأسيسـها بقيـادة رجلهـا العظيـم سـماحة العلامـة الشـيخ السـيد أبـي الحسـن علـي الحسني الندوي (في عام ١٩٧٥م-١٣٨٥هـ) يعتبر خطـوة جريئة نحو بعث تعليمي وتربوي جديد ، ونواة عمل كبيرة فـي مجـال وضـع نظـام تعليمـي موحـد يكـون جامعًـا بيـن النظـامين التعليمييـن اللذيـن كـانت تتوزعهمـا المـدارس الإسـلامية والمـدارس العصريـة وكـان لكـل واحـدة منهمـا أنصار ومتحمسون لا يرون أنهما تتلاقيان وتتعاونان فيمـا بينهما .

لقد قامت ندوة العلماء منذ أكثر من قرن على مبدء الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، وبين العلم الراسخ والإيمان الواسع ، فكان لابد من أن يشعر المسئولون عنها بمسئوليتهم نحو تحقيق هذا المبدء ، وملء الفجوة بين النظامين التعليميين المتنافسين ، وانطلاقًا من هذا الشعور أقاموا هذا المهرجان التعليمي الذي زاد إلى تاريخ هذه المؤسسة العلمية الكبرى صفحة رائعة جديدة ، وتعارف الناس بمكانة ندوة العلماء وأهميتها في تاريخ الهند العلمي الإسلامي .

حضر المهرجان التعليمي على دعوة من سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء ٧١/وفدًا من ١٧/دولة على المستوى الرسمي ، وكانوا يمثلون وزارات التعليم والثقافة والمراكز العلمية الحساسة ، من بينهم فضيلة شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله من مصر، ومعالي وزير

الأوقاف وشئون الأزهر الدكتور حسين الذهبي ، وسماحة العلامة الشيخ أحمد عبد العزيز رئيس القضاة (أبوظبي) وسماحة العلامة الشيخ عبد الله العلي المحمود المدير العام للأوقاف والشئون الإسلامية بالشارقة ، وسعادة الدكتور يوسف القرضاوي ، وسعادة الشيخ يوسف الفوزان سفير المملكة العربية السعودية في الهند ، وسعادة الأستاذ محسن باروم (جدة) وفضيلة الشيخ حسن حبنكه (دمشق) ومعالي الشيخ يوسف جاسم الحجي (الكويت) وفضيلة الأستاذ تيسير ظبيان (المملكة الأردنية الهاشمية) وسعادة الشيخ ابراهيم الحجي وكيل وزارة المعارف للمملكة العربية السعودية ، ومعالي الدكتور عبد العزيز الفدا مدير جامعة الرياض، وسعادة الأستاذ محمد بن صالح العميل المدير العام للتعليم المتوسط بوزارة الأوقاف السعودية يوم ذاك ، ومن إلى ذلك من أقطاب التعليم والتربية والدعوة والفكر الإسلامي .

رحب سماحة العلامة الندوي هذه الوفود الموقرة بكلمة ضافية عبر فيها عن سروره البالغ وارتياحه الكبير بوجود هذه الصفوة المختارة من رجالات العالم الإسلامي في بلد كالهند التي تسكنها أكبر أقلية إسلامية في العالم ، وتغار على دينها وتتمسك بشريعتها ، وتساهم في إثراء التاريخ الإسلامي بالإنجازات والآثار والأعمال العلمية والدينية الفريدة من نوعها ، التي تولتها كبار الشخصيات من العلماء والأدباء والمؤرخين والمؤلفين والأساتذة والمدرسين والدعاة والمفكرين ، قلما يوجد لهم نظير في تنوع الأعمال وتفنن الأذواق وفي الإخلاص والتجرد والورع ، والعمل في خفاء وتستر لمجرد ابتغاء وجه الله تعالى .

فقد كان المهرجان ذريعة لاطلاع العالم الإسلامي على الكنوز المغمورة والجوانب المجهولة في حياة مسلمى هذه البلاد التي خفيت عن الأنظار بوجه عام ، ولم يُعرف

حتى في الأوساط العلمية والدينية في العالم الإسلامي ذلك الدور العظيم الذي قام به المسلمون في هذه البلاد في مجالات التعليم والتربية والتدوين والتحقيق ، والتأليف والتصنيف والدعوة والجهاد ضد الاستعمار ، ولكن هذا المهرجان التعليمي الذي أقامته ندوة العلماء على المستوى العالمي كشف للعالم كله مدى تعلق المسلمين في الهند بدينهم ، وارتباطهم بالإسلام ونبيّ الإسلام ، والمنة التي أفاء الله سبحانه بها عليهم من طريقه ، ولذلك فإنهم لم يربطوا مصيرهم إلا بدين الإسلام ، ولم يرضوا قط بالانسحاب عن ساحته والاستغناء عن شريعته ، ولم يروا إلى الدعوات الباطلة والشعارات الجوفاء إلا بنظرة ملؤها ازدراء ومقت وكراهية .

ولا ينسى التاريخ الإسلامي ما لهذه المؤسسة العلمية والدينية من دور عظيم في نشر العقيدة الصحيحة وتفسير القصد والاتزان اللذين هما ميزة الدين الإسلامي ، وما لها

من خدمات علمية ودينية ودعوية وفكرية ، على أرفع مستوى ، وبابلغ أسلوب .

هذه الكلمة الفياضة لسماحة شيخنا العلامة الندوي تلقى ضوءًا لامعًا على جميع الجوانب المذكورة أعلاه ، وهي ذات قيمة عظيمة في تاريخ ندوة العلماء وبالتالي في تاريخ هذه البلاد الإسلامي .

ومن هنا رأينا أن ننشرها في صورة رسالة مستقلة بعنوان : "موقف المسلمين في الهند من التعليم والتربية ، ودورهم في إثراء التاريخ الإسلامي" راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن يكرمها بالقبول والإفادة ، وبالتقدير والاعتراف . والله ولي التوفيق والسداد ،،،

كتبه العبد العاجز

(سعيد الأعظمي الندوي)

رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

١٤١٨/١/١١هـ

١٩٩٧/٥/١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمد النبي الأمين ، وآله وأصحابه الطاهرين الطيبين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، من خلفاء الرسل وأئمة الدين ، الذين ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد ! فحضرة الرئيس الجليل والسادة الأجلاء ، والضيوف الأعزاء !

أحييكم : أصالة مني ونيابة عن زملائي وعن مسلمى الهند وعلمائهم بتحية الإسلام وبتحية العلم ، تحية الزملاء الصغار للزملاء الكبار ، وتحية الرفاق للرفاق ،

فكلنا نسير في ركب الإسلام السيار ، وفي موكب العلوم الإسلامية الحافل ، إذا فرقت بيننا الأستاذية والتلمذ ، والأصالة والتطفل ، والقيادة والتبعية ، فقد جمعنا ظل الإسلام الوارف ، و وسعتنا وشيجة العلم الجامعة ، وكلنا أبناء الإسلام ، وزرع النبوة ، وغرس القرآن ، وتلاميذ مدرسة الإيمان .

أرحب بكم أيها السادة على أرض قامت عليها تجربة من نوع فريد في تاريخ الديانات والحضارات والثقافات ، نجحت نجاحًا منقطع النظير ، تجربة دخول دين يواكبه العلم والحضارة ومنهج خاص للحياة ، لا تربطها به لغة ولا آداب ولا حضارة ، ولا قومية ولا عنصرية ، ولا عادات ولا طبائع ، فبرهنت هذه التجربة على القوة المودعة في طبيعة الإسلام ، وقدرته على إشعال المواهب، وتفتيق القرائح ، وإثارة الدفائن ، واستخدام الطاقات البشرية في صالح الإنسانية ، وعلى استجابة

الفطرة البشرية السليمة له ، كأنما كانت منه على موعد واشتياق ، ومعه على تفاهم واتفاق ، وبرهنت كذلك على خصب التربة ، وكرم المنبت ، وعلى أن العلوم الإسلامية تورق وتثمر في كل بيئة ومناخ ، وقد تكون أكثر ازدهارًا، وأفضل ثمارًا إذا غرست في أرض بكر ، وتناولها عمل التلقيح الحكيم ، و "التأبير" السليم ، وعلى أن الشعور بالغربة ، والبعد عن مصدر هذه الهداية ، ومنطلق هذه القافلة ، واليأس من وصول الميرة والمدد ، والاعتماد على نصر الله وحده ، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية ، وصلاحيتها للبقاء ، ونفعها للإنسانية المعذبة ، والشعور بكونها على ثغرة بعيدة من ثغور الإسلام ، كلفها الله حراستها والذود عنها ، يثير في هذه الجالية قوة تصنع العجائب وتأتي بالمعجزات ، وتتغلب على كل مقاومة ومحاربة ، ومؤامرة ومعاكسة ، وتكذب تجارب الأمم ، وتبطل المنطق المادي الذي يؤمن

بالرياضيات ، وفلسفة الأعداد والعدد ، وخضوع النتائج للمقدمات والمسببات للأسباب .

تدخل هذه الجالية في البلاد غريبة ، فلا تلبث أن تتخذها دارًا وقرارًا ، يحبها أبناؤها وتحبهم ، ويرون فيها الأخ الكريم ، والأب الرحيم ، والأستاذ الشفيق ، والحاكم الرفيق ، والصانع الحاذق ، والإداري الحازم ، وتصب على هذه التربة أفضل ما عندها من طاقات وكفايات ، وعلوم وتجارب ، وتعاليم وآداب ، وإبداع وابتكار، ونشاط وحماس ، وقوة عمل وقوة إرادة ، وحسن تنظيم وقدرة إدارة ، وتلتقي الفروسية التركية ، وقوة الإرادة المغولية ، والنخوة الأفغانية ، والطبيعة الإيرانية المرحة القلقة ، الهائمة بالجمال والخيال ، ورقة العجم وخفة روحهم مع جدية العرب وسلامة ذوقهم ، مع طبيعة البلاد وابنائها الرقيقة الوادعة ، الولوع بالفلسفة والتصوف ، يسيطر على جميع هذه العناصر والعوامل عقيدة التوحيد النقية ، وتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، وتصهرها في

بوتقتها، فتنشأ من كل ذلك حضارة جديدة تستحق أن تسمى : "الحضارة الإسلامية الهندية" .

وقامت في الهند مدرسة حضارية فكرية علمية ، ذات شخصية خاصة ، وطابع خاص ، أنجبت عددًا كبيرًا من النوابغ ، وأئمة الفنون الإسلامية ، وأصحاب الإبداع والابتكار ، والأصالة العلمية ، كانوا أصحاب مدارس خاصة ، وفاتحي آفاق جديدة ، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث ، والفقه والعقائد ، فحسب ، بل في علوم اللغة والآداب العربية ، أقر لهم علماء العرب بالامامة والزعامة فيها ، وعدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هذه العلوم ، وبعضها فريد لا نظير له في المكتبة الإسلامية العالمية (١) ، ومدت هذه المدرسة

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب كاتب هذه السطور "المسلمون في الهند" ولتفصيل أكثر كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" للعلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني ، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق .

الحركة العلمية والتأليفية في العالم الإسلامي والعربي التي أصابها الفتور ، وغشيها الإعياء الفكري في بعض الفترات بعد القرن الثامن الهجري، بدم جديد ونشاط جديد، وأصبحت معقلا لبعض العلوم الإسلامية -بعد الزحف التتاري وصارت أكبر مركز لعلم الحديث الشريف في الزمن الأخير ، ومصدر إشعاع وتصدير بعد ما كانت مركز استفادة واستيراد ، ونبغ فيها أكبر علماء هذا الفن ، وألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع ، وقاد بعض رجالها في مختلف العهود حركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، سمع صداها العالي ، ورؤيت آثارها الطيبة المباركة ، في نواحي العالم الإسلامي البعيدة .

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضارية ، ثقافية فكرية ، شهدها التاريخ المعاصر ، وأن تواجه أعنف صراع بين المبادئ والعقائد ، والقيم والمفاهيم ، والمعايير والموازين ، معركة قامت بين

الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، وبين الحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية ، وصراع بين الفكرة الإسلامية ، والفكرة الغربية بأوسع معانيهما وأدقها ، فكانت معركة حامية دامية ، وصراعًا عنيفًا قاسيًا ، فقد واجه الشعب الهندي المسلم المثخن بالجراح ، المصاب بدهشة الفتح ، الحضارة الغربية الفتية ، الدافقة بالحيوية والنشاط.وجهًا لوجه ، لا حاجز بينهما ولا فجوة ودام في ربوع الهند الحكم الإنجليزي الثائر الموتور الحانق على هذا الشعب الذي تسلم منه مفاتيح البلاد ، وذاق من جرائه الثورة العارمة والحرب المسعورة قرنًا كاملاً ، يحمل الروح الصليبية مع الروح الاستعمارية ، يرى في الشعب المسلم منافسه الحقيقي الدائم في كل زمان ومكان ، ويرى في الإسلام معسكرًا يوازي معسكره على طول الخط ، وكي يدعى أنه يقود الحياة ويصوغ المجتمع ، ويشرع ويسن القوانين ، ويملأ الفراغ الذي لابد أن يملأ ، فكان نصيب الشعب المسلم من لهيب هذه المعركة وخسائرها

وغراماتها أكثر من نصيب أي شعب آخر، وكان أكثر حساسية وأكثر حسابًا لهذه المعركة من جميع الشعوب بطبيعة الحال، وقد سجل التاريخ الأمين المنصف ، أنه كان أكثر صمودًا ، وأكثر احتفاظًا بشخصيته ومعنوياته ، وأكثر تمردًا واستعصاءًا على حركة الإبادة الدقيقة الشاملة من أكثر الشعوب الإسلامية التي اكتوت بنار الاستعمار الأجنبي و وقعت تحت نيره .

هذا عدا حركة "التنصير" التي يسميها أصحابها حركة "التبشير" التي واجهها المسلمون في الهند على إثر استقرار الحكم الإنجليزي ، وقد كادت تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكانت مسلحة بأقوى الأسلحة ، وأشدها تأثيرًا في الشعب المفتوح المهان ، وتتمتع بحماية الدولة التي تعتبر هذه البلاد منحة من السيد المسيح –على نبينا وعليه الصلاة والسلام– والسيطرة على البلاد ، فرصة سانحة للدعوة إلى الدين المسيحي ، ترافق حركة

التنصير حملة تشكيكية قوية ، تشكيك في كل ما يتصل بالدين الإسلامي من شريعة وحضارة ، وثقافة وتاريخ ، وقد قاوم علماء المسلمين كلتا الحركتين بقوة زائدة ، وقدرة فائقة ، وآثروا سياسة الهجوم والنقد العلمي على سياسة الدفاع والتماس العذر ، فانحسرت موجات الدعوة التبشيرية ، والحركة التشكيكية ، وتراجعت إلى الوراء ، وازداد المسلمون إيمانًا وثقة بدينهم ، واعتزازًا بحضارتهم وثقافتهم، واعتدادًا بشخصيتهم وتاريخهم .

وأم عدد كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية في كبرى العواصم الأوربية ، وتخصصوا في علومها العصرية ، وحذقوا اللغة الإنجليزية كأبنائها ، وكان منهم أدباء ، وكتاب ، ومؤلفون ، ومعلمون ، وإداريون ، شهد ببراعتهم وتفوقهم علماء الغرب ، ولكن كان منهم أكبر نقدة ، وأقوى ثائرين على الفلسفة الغربية المادية ، والفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية أحيانًا ، والمتحللة الملحدة أحيانًا كثيرة ، وتناولوا الحضارة

الغربية ، والفلسفات الحديثة بنقد علمي عميق ، وتشريح جريئ دقيق ، وتهكم لاذع رشيق ، كل على حسب أسلوبه الخاص ، وظروفه الخاصة ، وصدرت من أقلامهم أقوى كتابات في عرض الإسلام كدين كامل شامل ، ومهاجمة الحضارة الغربية في أسلوب مليئ بالثقة والاعتزاز ، بعيد عن كل تأويل واعتذار ، وأنشأوا جبهة علمية قوية أمام دعوة الفكر الغربية والحضارية ، شعارها إنكار إمامة الغرب ، وعصمته من كل خطأ ، وبراءته من كل ضعف، والافتخار بالإسلام كرسالة إنسانية عالمية خالدة ، والإيمان بمحمد ﷺ كخاتم الرسل ، ومنير السبل ، وإمام الكل .

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربة جديدة ، ودخل في فترة كبيرة الأهمية ، هي تجربة ممارسة الحياة الحرة الاستقلالية ، التي كان من أول دعاتها ، ومن أكبر أبطالها، والمضحين في سبيلها ، والتي يساهم فيها كأبناء

البلاد وأفراد الشعب المواطن المناضل ، الحر الأبي الكريم ، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي، تسن فيه قوانين جديدة ، ويصاغ فيه المجتمع صوغًا جديدًا، ويوضع للتربية والتعليم نظام جديد ، وتتحكم في حياة البلاد اتجاهات طائفية أحيانًا ، عاطفية وأعصابية أخرى ، والمسلمون في كل هذه الظروف أقلية عددية ، وطائفة متخلفة ، قد حرص الحكم الإنجليزي على إضعافها وتأخيرها في ميدان الحياة ، تحيط بها هالات من رواسب الماضي ، ومن شبهات هي منها بريئة كل البراءة، ومن تصرفات هي منها بعيدة كل البعد ، وكل ذلك يضخم مسئوليتها ، ويضعف موقفها ، ويحرج مركزها ، وهي مع كل ذلك مصممة على البقاء في هذه البلاد ، مع الاحتفاظ التام بشعائر دينها، وخصائص حضارتها وشخصيتها ، لا تتخلى عن شئ من ذلك ، فكانت محنة ذكاء ومحنة وفاء ، محنة عقيدة جازمة ، ومحنة وطنية صادقة ، محنة الشخصية القوية العبقرية ،

ومحنة الروح الإيجابية البناءة ، محنة يقل نظيرها في التاريخ الإسلامي القديم ، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك ، ويندر الحديث عنه في كتب الفقه والفتاوى ، ومتى وجد ستون مليونًا أو أكثر ، من المسلمين في أكثرية غير المسلمين ، في بلد يحكمه البرلمان ، ويسيطر عليه الدستور ، واتخذ العلمانية له شعارًا ؟ فلا سبيل إذًا في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الإسلام والحقائق الراهنة ، إلا الأصول الإسلامية الحكيمة ، الخالدة العالمية ، والذكاء الألمعي ، والشخصية القوية ، والعزم الصادق ، والإيمان الراسخ ، وإيثار حياة الشرف والكرامة على حياة اللؤم والمهانة ، والاستشراف لتبوء مكان القيادة الخلقية الذي لا يزال منصبها شاغرًا ، والظهور على منصة هذه البلاد ومسرحها كداع مخلص رباني ، وقائد خلقي إنساني ، مجرد عن كل شهوة وأنانية، وأغراض فردية وجماعية ، ينقذ هذه البلاد من الهوة

السحيقة العميقة من الانحطاط الخلقي ، وتقديس المادة والتهالك عليها والانتهازية ، ونسيان فاطر الكون ، وذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هذا الشعب من مستواه الشعبي العام إلى مستوى الرائد ، والقائد الرفيع السامق .

وقد عرف الشعب المسلم الهندي في تاريخه الطويل -ولا أزكى على الله أحدًا إنما هو تحديث بالنعمة ، وتقرير الواقع التاريخي- بقوة عاطفته الدينية ، وحبه العميق ، المتغلغل في الأحشاء ، لرسول الله ﷺ ، وارتباطه بمهد الإسلام ومركزه ، وذلك الذي حماه من أن يذوب ويفقد شخصيته ، كما كان الشأن مع الشعوب التي دخلت في هذه البلاد في فترات مختلفة ، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الإسلام والمسلمين في الزمن الأخير ، قد تبنى قضية الدفاع عن الخلافة العثمانية بحماس منقطع النظير ، ولا تزال "حركة الخلافة" التي كان لها فضل كبير في إثارة الوعي السياسي والوطني في شبه القارة الهندية ، كبرى حركات الهند الشعبية ، وموضع دهشة

المستعمرين ، وموضوع المؤرخين والمؤلفين ، وكذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين ، والمسجد الأقصى المبارك ، وكان مرهف الحس ، رقيق الشعور ، شديد الانفعالية في كل ما يقلق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تجلت قوة عاطفته الإسلامية ، وشدة تمسكه بالدين ، وتعاليمه وثقافته ، في شبكة المدارس الدينية والكتاتيب الإسلامية ، الدقيقة الواسعة التي قلما خلت منها قرية كبيرة فضلاً عن المدن والأمصار ، وقد أسسها المسلمون في طول الهند وعرضها ، بعد استقرار الحكم الإنجليزي ، وتملكه لزمام التربية والتعليم في القطر الهندي ، وهي تتجاوز المئات ، وتبلغ إلى الألوف ، ومنها عدد كبير يسمى بالمدارس العربية لعنايتها الزائدة بالعلوم الإسلامية التي ألفت كتبها في اللغة العربية ، وعنايتها بالقرآن والحديث اللذين هما بلغة العرب ، وهي تعنى

غالبًا بتدريس الجامع الصحيح للبخاري بصفة خاصة ، وتدريس صحيح مسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود بصفة عامة ، وتكاد تكون هذه المدارس كلها شعبية يمولها ويكفلها الشعب المسلم ، ويعتبر ذلك سعادة وعبادة ، ويتنافس فيه ، وذلك سر وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحتسبين ، والدعاة المتطوعين ، والمعلمين المخلصين في كل زمان ، الذين يعيشون على الكفاف ، ويبلغه من العيش يتبلغون بها في نشر العلم ، والدعوة إلى الله ، وتعليم الناس دينهم .

ومن سمات العلماء والمتخرجين في هذه المدارس الدينية البارزة ، أنهم كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد وإجلاء "المستعمرين" ، وفي مركز القيادة في هذه الحركة الشعبية القوية ، ومنهم انبثقت فكرة النضال ضد الاحتلال في الحقيقة ، وقد قاد كثير منهم حركات المقاومة الفعالة والثورات المسلحة بمقدرة وشجاعة ، فمنهم من قتل شهيدًا ، ومنهم من شنق ، ومنهم من نفي إلى جزائر

اندمان أو إلى منفى جزيرة مالطا ، ومنهم من قضى شطرًا من حياته في السجون والمعتقلات في داخل البلاد ، وتاريخ حركة التحرير والاستقلال مقترن بتاريخ العلماء والشخصيات الدينية في الهند متداخل فيه ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

ومن سماتهم البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م ، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة ، لا يزال لها أنصار وأتباع ومقلدون ، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع ، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء

الدين والشادين بالأدب والشعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقت واحد .

وأصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفيًا بالإسلام ، يستمد قوته وصموده من منابع الإسلام الأصيلة ، كالكتاب والسنة ، وسلوك الرعيل الأول من المسلمين ، وجهاده و وفائه ، وبطولاته ، وسيرة السلف الصالحين الذين أحسنوا فقه الإسلام ، وأساغوا تعاليمه ، واستقاموا على الطريقة ، قد ربط عقيدته ومصيره ، وسلوكه بالإسلام ، ولم يربطه بالمسلمين ، عربًا كانوا أو عجمًا ، فليس "إمعة" ، يقول : إن آمن الناس آمنّا ، وإن كفروا كفرنا ، وإن استقاموا استقمنا ، وإن انحرفوا انحرفنا ، ولا يشترط لوفائه للإسلام، وفاء شعب من الشعوب الإسلامية للإسلام ، بل يرى ذلك لزامًا عليه وشكرًا لنعمة الإيمان التي لا نعمة أعظم منها ، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكًا بالجامعة الإسلامية ، معتزًا بحضارة الإسلام وفلسفته ، متمسكًا بالدين الإسلامي كدين كامل يقود الحياة كلها والأزمنة

والمجتمعات كلها ، حين تؤمن شعوب كثيرة بقومياتها وحضاراتها البائدة ، وفلسفات عتيقة وحديثة ، منافية للإسلام أو منافسة له ، وأن يلهم الثبات على المبادئ ، والقيم ، والمثل العليا ، مهما كانت قيمته في الحياة المادية والفرص المواتية ، حتى يستطيع أن يخاطب ربّه وينشد :

فليتك تحلو و الحياة مريـــــرة
و ليتك ترضى و الأنام غضـــاب
و ليت الذي بيني و بينك عامـــر
و بيني و بين العالمين خـــراب
إذا صح منك الـــود فالكلّ هين
و كل الذي فوق التـــراب تراب

لذلك كله -أيها السادة- كانت هذه الأرض جديرة كل الجدارة بأن تلتقي عليها هذه الصفوة المختارة ، من علماء الإسلام ، وقادة الفكر ، وأقطاب التربية والتعليم ، ليطلعوا على مدى النجاح الذي حققه هذا الشعب المحاط

بالمحن والمشكلات -التي قلما أحيط بها شعب من الشعوب الإسلامية- في الاحتفاظ بشخصيته ، وأداء رسالته ، وإثبات جدارته ، وعلى المسافة التي لا تزال أمامه ، وهو يطلب من إخوانه ، في العالم الإسلامي والعربي ، التوجيه الرشيد ، والرأي السديد .

وأرحب بكم ثانية في مدينة لكناؤ التي كانت تلو دلهي -عاصمة القطر الهندي- في خصب التربة ، وحضانة العلم والعلماء، وقد آلت إليها زعامة الحضارة ، والآداب ، واللغة ، وانتهت إليها رئاسة التدريس والتأليف في العهد الأخير ، ونبغ فيها علماء ومؤلفون فاقوا أقرانهم في التفنن في العلوم والآداب ، وكثرة التأليف وقوة التدريس ، وانفجرت منها عيون العلم فأروت القريب والبعيد ، وفيها بلغ منهاج الدرس القديم طوره الأخير من التنقيح والتهذيب ، والزيادة والتكميل ، فسمي : "الدرس النظامي" وسيطر على الأوساط العلمية التعليمية في شبه القارة الهندية ، وفي أفغانستان وتركستان ، وخدم فيها

القرآن حفظًا وتجويدًا ، ونشرًا وتعليمًا ، في العهد الأخير، خدمة لا يوجد لها نظير في كثير من المدن الإسلامية .

﴿ و ذلك فضل ا لله يؤتيه من يشاء * وا لله ذو الفضل العظيم ﴾

وأرحب بكم ثالثة -أيها السادة- في هذه المؤسسة التي تمثل فصلاً من أروع فصول تاريخ الوعي الإسلامي ، والقيادة الإسلامية، والفكرة العلمية ، فهنا تجسم الشعور بالواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون -ليس في شبه القارة الهندية فحسب بل في العالم الإسلامي- في فجر القرن الرابع عشر الهجري ، وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، من تمزق الشمل ، وتشتت الفكر ، وضعف الثقة بصلاحية الرسالة التي أكرمهم الله بها لمسايرة الزمن فضلاً عن قيادة الركب البشري ، والحسبة على العالم ، وصلاحية شريعتهم السماوية لحل المعضلات ، والإرشاد في النوازل والقضايا الجديدة وصلاحية علومهم الإسلامية للبقاء والازدهار ، والنمو والتوسع ، وتوزع بين

طبقتيــن متنــاكرتين متنــافرتين أحيانًــا ، ومتنافســتين ومتناحرتين أحيانًا كثيرة ، طبقة علمــاء الديـن المتخرجين في المدارس الدينية على النمـط القديم ، وطبقـة المثقفين بالثقافة الغربية ، المتعلمين في الكليات والجامعات المدنية، لا تزال الجفوة بينهما تشتد وتحتد ، ولا تزال الفجوة بينهما تتسع وتعمق على مر الأيام ، والقنطرة التي تصل بينهما مفقودة أو مكسـورة ، ومـا أشـقى الطبقتيـن مـن أمـة إذا احتاجتا في اللقـاء والتعـاون إلـى جسـر يصـل بينهمـا ، أو ترجمان يترجم لهما ، وما أشقى الأمة بهما ، وتوزع كذلك بين الطوائف الإسـلامية ، والمذاهـب الفقهيـة ، ينظـر كـل منهـا إلـى الآخـر نظـرة ازدراء واحتقـار ، ونظـرة خـوف وإشفاق ، والمناظرات والمطـارحات بينها قائمـة علـى قـدم وسـاق ، قـد تتحـول إلـى مضاربـات وإهانـات ومحاكمـات ومخاصمـات ، وقـد تجـر إلـى تضليل وتفسـيق ، بـل إلــى تكفير أحيانًـا كثيرة ، والمنـاهج الدراسـية قـد ختـم عليهــا بـالختم الأخير لا تقبـل زيــادة ولا نقصًــا ، وقــد غشــيت

الأوساط العلمية غاشية من العزلة الفكرية ، فلا تفتح نافذة على ما جدّ في العالم الحديث من علوم وأفكار ، وبحوث ودراسات ، ولا تتصل بالحياة السريعة الصاخبة إلا عن طريق السياسة أو التبعية ، وهنا أفلت منها زمام القيادة والتوجيه ، والإشراف على المجتمع الإسلامي ، والوصاية عليه ، وصيانته من الغزوات الفكرية والغارات الصليبية ، والانحرافات الخلقية ، و وقعت الطبقات المثقفة تحت رحمة دعاة التغريب ، والردة الفكرية والحضارية من المسلمين القوميين وغيرهم .

وفي هذه الساعة العصيبة الدقيقة ، وفي هذا الجو الغائم القاتم التقت (سنة ١٣١١هـ-الموافق ١٨٩٢م) مجموعة من أهل الفراسة الإيمانية ، والشعور المرهف ، والتألم بواقع المسلمين ومستقبل علماء الدين والعلوم الإسلامية ، بل بمستقبل هذا الدين في هذه القارة التي سقيت بأزكى دماء المسلمين ، وغذيت بأذكى عقول علماء

الدين ، وسايرت ركب العلم والحضارة الإسلامية ، بل وقادته أحيانًا ، والتقى أهل العقول بأهل القلوب ، وكبار علماء الدين بخيار المثقفين المدنيين ، وفقهاء المذهب الحنفي بزعماء أهل الحديث والأثر ، والزهاد المتبتلون الذين آثروا العزلة وعكفوا على العبادة ، بوجهاء البلد وأعيانه ، وكبار الحقوقيين ورجال التعليم ، فأسسوا جمعية سموها : "ندوة العلماء" لأنها نبعت من فكرتهم ، وتأسست على دعوتهم ، وهم الموجهون لها والمشرفون عليها ، وبدأت كفاحها في جمع شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم ، وتنسيق جهودهم في إنهاض المسلمين ، ومحاربة الأخلاق الفاسدة ، والتقاليد الجاهلية، والعادات القبيحة المضرة ، وجمع العلماء من مختلف المذاهب الفقهية ، والطوائف الإسلامية السنية على منصة واحدة للاهتمام بأمر المسلمين ، وإصلاح مناهج التعليم الديني وتطويرها وتكييفها مع الزمن ، في نطاق المبادئ الإسلامية ومقاصد الشريعة الإسلامية ورفع مستوى العلماء وتوسيع آفاق

فكرهم ومعلوماتهم ، وإعداد العلماء الذين يتمتعون بثقة كلتا الطبقتين -القديمة والحديثة- وتقديرهما ، ويأخذون مكانهم الطبيعي في قيادة المسلمين الدينية ، والفكرية والعلمية الذي فقدوه من زمان بضعفهم في العلوم الدينية ، وبعدهم عن الحياة .

ونادوا بإعطاء القرآن الكريم متنًا وتفسيرًا ، حقه من العناية والدراسة والتمييز بين العلوم الآلية والعالية ، والوسائل والمقاصد ، وتقديم كتب المتقدمين المتذوقين للدين والعلم أصالة على كتب المتأخرين ، والعناية بتعليم العلم أكثر من العناية بتدريس الكتاب ، ونادوا باحلال اللغة العربية وآدابها محلها اللائق في المناهج الدراسية ، والمقررات المدرسية ، فقد كانت بلغت منتهى الضعف في الزمن الأخير ، و وضعت في هامش المناهج والنشاط العلمي التعليمي ، وتعليم اللغة العربية كلغة حية راقية ، دافقة بالحياة والقوة، مرنة تساير متطلبات العصر ،

وحاجة الدعوة والدعاة ، حتى يستطيع أبناء هذه الدار أن يتذوقوا جمال القرآن وإعجازه ، وفصاحة الحديث النبوي وقوته ، ويخاطبوا أبناء العرب في لغتهم ، وأساليب كلامهم ، ويقاوموا الفتن العصرية والدعوات المضللة ، وكانت فكرة سابقة للزمن الذي لم تحدث فيه وسائل الاتصال ، ولم تسنح فيه فرص اللقاء التي حدثت في هذه العقود الأخيرة ، حين نالت البلاد الإسلامية والعربية الاستقلال ، وعمت الاجتماعات واللقاءات على الصعيد الدولي ، فكان كل ذلك دليلاً على بعد نظر هؤلآء العلماء، ودعوا إلى ضم بعض العلوم الحديثة النافعة التي لا يسع العالم جهلها ، و دراسة اللغة الرسمية السائدة إلى مناهج التعليم .

وأسسوا لتحقيق هذه المطالب والغايات مدرسة نموذجية سنة ١٣١٦هـ-١٨٩٨م في مدينة لكناؤ ، سموها: "دار العلوم ندوة العلماء" ، وتوسعت واشتهرت حتى غطى اسمها في كثير من الأحيان

اسم المؤسسة الأم ومصدرها، وتقرأون قصة هذه الجمعية وما مرت به من أدوار ومراحل ، وقصة هذه الدار التي نلتقى في رحابها وما قطعته من أشواط مشروحة مفصلة في الكتب والرسائل التي تقدم إليكم .

في رحاب هذه الدار العلمية ، وفي مركز هذه المؤسسة التي هي مدرسة فكرية شاملة ، وحركة إصلاحية توجيهية ، نرحب بكم أيها السادة ، ونحييكم بتحية الإسلام والعلم في هذا الملتقى الكريم ، والمشهد العظيم ، الذي ستظل أخباره ومشاهده تذكر وتشكر ، وتنقل وتروى ، والذي يمثل بحول الله تعالى ، وتوفيقه العالم الإسلامي الواسع هذا التمثيل الجامع الرائع الذي قلما شهدته هذه البلاد في الماضي القريب .

وسيشترك في رواية هذه القصة الجميلة الرائعة ونقلها إلى الأجيال القادمة ، رواة صادقون من الأحياء ، وشهود عادلون من الأعضاء .

فالعين عن قرة ، و الكف عن صلة

والقلب عن جابر ، والسمع عن حسن

(أبو الحسن علي الحسني الندوي)

١٤١٨هـ-١٩٩٧م

